بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس: 25 **الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق**

الدرس: تفسير القرآن الكريم **المبحث: سورة لقمان**

التاريخ:30\11\2021 م **كتبه: عبدالله ضيف الستري البحراني**

ما زال الكلام في الآية عشر ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيد﴾[1]

قبل الشروع في المقطع الثاني من هذه الآية نقف قليلاً عند السؤال الذي ذكر في المجموعة، حاصله كان هكذا: أننا ذكرنا لإتيان الحكمة شروطاً، منها: التواضع والزهد، وعلى رأسها الإيمان والتدبر والبصيرة وما شابه ذلك، فهذه الشروط قد يقال بأنها تتنافى مع إيتاء المنافق للحكمة كما في بعض الروايات، باعتبار أن المنافق لا محالة يكون خلواً عن هذه الشروط، فكيف نوفق بين هذين الأمرين؟

الأمر في ذلك سهل؛ باعتبار أنه يوجد فرق بين الحكيم وبين من يحمل حكمة. الحكيم هو الذي تصدر عنه الحكم ويكون عاملاً بها، هذا إنسان حكيم ويكون مستفيداً منها، هذا نقول له حكيم، لكن موطن الحكمة ليس من الضروري أن يكون عند حكيم، قد يكون عند المنافق، وهذا ليس إيتاء للحكمة، الذي يترتب عليه ﴿فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثيرا﴾[2] وأما هذا مجرد حمل كمثل ﴿كَمَثَلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفارا﴾[3] الحمار يحمل الأسفار والكتب، لكن لا يستفيد منها، وربما يؤكد هذه الإشارة ما ورد في بعض الأخبار في أمالي الشيخ الطوسي رحمة الله عليه بسنده قال سمعت أمير المؤمنين عليه السلام: قَالَ: سَمِعْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) يَقُولُ: إِنَّ الْكَلِمَةَ مِنَ الْحِكْمَةِ تَتَلَجْلَجُ فِي صَدْرِ الْمُنَافِقِ نُزُوعاً إِلَى مَظَانِّهَا [يعني صدر المنافق ليس من مظانها] حَتَّى يَلْفِظَ بِهَا، فَيَسْمَعَهَا الْمُؤْمِنُ، فَيَكُونَ أَحَقَّ بِهَا وَ أَهْلَهَا، فَيَلْقَفَهَا.[4] هذه الرواية تشعر بهذا الشيء الذي ذكرته، فإن الحكمة قد يكون موطنها صدر

---

[1] لقمان 12

[2] البقرة 269

[3] الجمعة 5

[4] الأمالي (للطوسي)، النص، ص: 625: وهي كالتالي: قَالَ: أَخْبَرَنَا جَمَاعَةٌ، عَنْ أَبِي الْمُفَضَّلِ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْعَلَوِيُّ الْحَسَنِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْمُنْعِمِ بْنِ النَّضْرِ أَبُو نَصْرٍ الصَّيْدَاوِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ عُثْمَانَ، عَنْ حُمْرَانَ بْنِ أَعْيَنَ، قَالَ: سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ

المنافق لا القلب، القلب يتأثر لكن الصدر لا يتأثر، بل قد يحمل، فهذه تتلجلج وتتردد وتريد أن تخرج من صدره إلى أن تلقى مؤمناً، فتصدر هذه الحكمة من المنافق وإن لم يعرف معناها وإن لم يستفد منها، فتستقر عند المؤمن فينتفع منها. فإذن هذا الأمر لا يتنافى مع الشروط التي ذكرناها.

المقطع الثاني: يقع الكلام في هذه الآية وهي قوله: ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِه﴾ مضمون هذه الآية جاء في سورة النمل أيضاً في قصة سليمان، قال تعالى: ﴿قالَ الَّذي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ أَنَا آتيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قالَ هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَ أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾[5] هذا المضمون وهذا المقطع قد تكرر، جاء في سورة النمل في قصة سليمان، وجاء في سورة لقمان فيما نحن فيه.

هناك أمور ينبغي أن نقف عندها في هذه الآية أو في هذا المقطع:

أولاً: في تفسيره الإجمالي ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ معنى هذه الجملة أن الشكر لا يعود نفعه وريعه إلى الله سبحانه وتعالى، وإنما هو نفع للشاكر ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ أما الذي يكون كافراً بأنعم الله، الكفر هنا ليس الكفر بالله، قد يكون شخص يعتقد بالله سبحانه وتعالى ولو على المستوى الظاهري، ويسمى مسلماً بحسب الاصطلاح الفقهي، لكنه يكون كافراً بأنعم الله تبارك وتعالى، لذا الآية تقول ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ لا يتضرر الباري سبحانه وتعالى من ذلك، كيف يتضرر وهو ﴿غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ إذن معنى الآية واضح جداً. هذا المضمون الذي أفيد في هذا المقطع قسم الإنسان من ناحية نعم الله تبارك وتعالى إلى شاكر وإلى كافر، والشاكر ينتفع بشكره، والكافر لا يضر الله سبحانه وتعالى؛ لأن الله هو ﴿غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ هذا هو معنى الإجمالي للآية.

لكن هذا المعنى الإجمالي في كيفية إفادته من الآية هناك نكاة ينبغي أن نقف عندها:

من هذه النكات أنه في جانب الشكر عبر بصيغة الفعل المضارع، في جانب الكفر عبر بصيغة الفعل الماضي، قلنا أصل المعنى الذي ذكرناه لا إشكال فيه، لكن في مقام إفادته ما هو سر في أنه قال ﴿مَنْ يَشْكُرْ﴾ ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾؟ لماذا لم يقل ومن يشكر ومن يكفر؟ أو ومن شكر ومن كفر؟ لماذا غير هذا

الْحُسَيْنِ (عَلَيْهِمَا السَّلَامُ) يَقُولُ: لَا تُحَقِّرِ اللُّؤْلُؤَةَ النَّفِيسَةَ أَنْ تَجْتَلِبَهَا مِنَ الْكِبَا4 الْخَسِيسَةِ، فَإِنَّ أَبِي حَدَّثَنِي قَالَ: سَمِعْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) يَقُولُ: إِنَّ الْكَلِمَةَ مِنَ الْحِكْمَةِ تَتَلَجْلَجُ فِي صَدْرِ الْمُنَافِقِ نُزُوعاً إِلَى مَظَانِّهَا حَتَّى يَلْفَظَ بِهَا، فَيَسْمَعَهَا الْمُؤْمِنُ، فَيَكُونَ أَحَقَّ بِها وَ أَهْلَها، فَيَلْقَفَهَا.

[5] النمل 40

الأسلوب؟ طبعاً هذا نوع من أنواع الالتفات غير الالتفات الاصطلاحي عند السكاكي، الذي قلنا إن بعض علماء البلاغة من المتقدمين والمتأخرين يطلقون عليه اسم شجاعة العربية، كأنه هذا الأمر من مختصات اللغة العربية، أنه هنا في جانب الشكر استعملت المضارع، كان مقتضى السياق أن تستعمل في جانب الكفر أيضاً المضارع، فغير الأسلوب وانتقل إلى أسلوب آخر، أسلوب الفعل الماضي.

طبعاً، من ناحية المعنى لا فرق بينهما، لما ذكره علماء النحو من أن أداة الشرط تسوي بين الفعل والجزاء، فمثلاً: لو قلت من دخل داري فهو حر لوجه الله أي: من دخل داري في المستقبل ويكون حراً في المستقبل، أداة الشرط عندما تدخل لا تفرق حينئذ بين الماضي والمضارع، بلحاظ المعنى كلاهما على الاستقبال، لكن مع ذلك يبقى السؤال لماذا في جانب الشكر عبر بصيغة المضارع وفي جانب الكفر عبر بصيغة الماضي؟

لعل السر في ذلك أن أنعم الله سبحانه وتعالى باعتبار أنها دائمة ومستمرة لابد دائماً أن يتجدد الشكر، وهذا لا يعطيه فيما لو عبر بالفعل الماضي؛ لأن الذي يدل على التجدد والحدوث هو الفعل المضارع، فكلما تجددت النعم لا بد أن يتجدد الشكر، بينما في جانب الكفر يكفي في ذلك ولو صدر مرة واحدة، ولو نعمة من نعم الله الإنسان لم يشكرها يترتب عليها الأثر، ويدخل في سلك من كفر بنعم الله تبارك وتعالى. طبعاً بالمعنى الذي فسرناه لحقيقة الشكر فيما مضى، لا مجرد أن يقول الشكر لله، وإلا كثير من النعم الآن تمر علينا في كل لحظة، في كل لحظة الآن أنت في نعمة، كل نفس تتنفسه أنت في نعمة، فهل ينبغي دائماً أن أبقى أقول الشكر لله الشكر لله؟ لا، وإنما الشكر الحقيقي هو تفعيل نعم الله سبحانه وتعالى والاستفادة منها. فالآن حضورك في درس أو بحث أو مباحثة أو علم أو تبليغ أو ما شابه ذلك، هو شكر لله سبحانه وتعالى؛ لأنك من خلال ذلك تفعل ما أعطاك إياه الباري سبحانه وتعالى.

فإذن النكتة في تغيير هذا الأسلوب أنه في جانب الشكر عبر بالفعل المضارع في جانب كفران النعمة عبر بالفعل الماضي هو ما ذكرناه.

ومن النكات التي ينبغي أن نقف عندها في المقام، هو هذا التفاوت الموجود بين هذه الآية في سورة لقمان وبين تلك الآية في سورة الروم، ففي سورة لقمان ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ

اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ فقدم الشكر على الكفران، بينما في سورة الروم هكذا قال: ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾[6] قدم الكفر، هناك قدم الكفر وأخر العمل الصالح الذي هو نوع من أنواع الشكر؛ لأنه فيه تفعيل لنعم الله سبحانه وتعالى، ما هو السر في ذلك؟

الوجه في ذلك واضح؛ باعتبار أنه في سورة الروم كان في مقام الترهيب، ومقام الترهيب يقتضي أن يشير المرهب إلى ما هو على خلاف حدود الله سبحانه وتعالى، فناسب أن يبدأ بكفران النعم، بينما فيما نحن فيه في مقام الوعظ والنصيحة، في مقام الوعظ والنصيحة المستحسن أن يبدأ الواعظ والناصح بما هو خير ليجذب إليه ويحث عليه، فهذا هو السر في اختلاف هذا الأسلوب.

فإذن صار واضحاً معنى قوله: ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ يبقى هنا الجمع بين هذين الاسمين، الغني والحميد، في سورة النمل كما لاحظنا قال: ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ جمع بين الغنى وبين الكرم، الجمع بين الغنى والكرم، أما الغنى ليبين أن كفران النعمة لا يضر الباري سبحانه وتعالى؛ لأنه غني، بل أكثر من ذلك لغناه حتى تبقى نعمه متتالية ونازلة حتى على من كفر، يعني الآن هذا الذي كفر بنعم الله سبحانه وتعالى هل توقفت عنه نعم الباري تبارك وتعالى؟ لا؛ لأنكم بأن نعم الله سبحانه وتعالى على نوعين، هناك نعم تدخل تحت الرحمة الرحمانية أي: عامة للجميع، وهناك نعم تدخل تحت الرحمة الرحمية التي تكون خاصة بأولياء الله سبحانه وتعالى وبالخلص من عباده، فهذه النعم بالأصل لا تتنزل على من يكفر بأنعم الله، لكن النعم العامة هي عامة للجميع، فهناك جمع بين الغني وبين الكريم، أما هنا جمع بين الغني وبين الحميد، ما هو الوجه في ذلك؟ الغنى هنا واضح، يعني يريد أن يقول إنه لا ضرر يعود إلى الله سبحانه وتعالى بعد كونه هو الغني المطلق، هو الذي لا يحتاج إلى أحد، فلا نفع يأتيه من الشاكرين، ولا ضرر يأتيه من الكافرين، فاستعمال هذا الاسم في هذا المقام في محله، لكن ما هو النكتة في إضافة الحميد يأتي الحديث عن ذلك.

---

[6] الروم 44